تشكيل القارئ الضمني في النص القرآني

أ.بوقرومة حكيمة

جامعة– المسيلة

لقد كانت المفاهيم التي جاء بها من سبقوا "فولفغانغ أيزر" واقعة تحت هيمنة توجهات نظرية مختلفة، تعبر عن وظائف جزئية، وغير قادرة على وصف العلاقة بين المتلقي والعمل الأدبي، لذلك طرح "أيزر" مفهوما يتناسب مع توجهات نظريته، واعتقد أن أية "نظرية تختص بالنصوص الأدبية تبدو كأنها غير قادرة البتة على التخلي عن القارئ، إن هذا الأخير يظهر مثل نظام مرجعي للنص"(1)، إنه القارئ الضمني الذي يختلف عن أنواع القراء الآخرين، إذ ليس له وجود حقيقي، فالنص لا يصبح حقيقة إلا إذا قرئ في شروط استحداثية عليه أن يقدمها بنفسه، ومن هنا إعادة بناء المعنى من طرف الآخرين، فيحيل هذا النوع من القراء إلى بنية مقترنة بالمتلقي.

إن مفهوم القارئ الضمني عند "أيزر" يشبه تماما مفهوم اللغة عند "سوسير"(2)، فهو تجريد يوجه العمل الأدبي وجهة تحقق وظيفته التواصلية، لذلك اتجه "أيزر" إلى إجراءات تكشف عن الأشكال التي يتجسد فيها هذا القارئ في العمل الأدبي، فبحث في أنماط الاستجابة، وفي الفجوات التي يعتقد أنها مبثوثة في كل نص، وبحث في المعنى من خلال التفاعل الذي يحصل بين بنية العمل وفعل الإدراك.

يعتبر القارئ الضمني قمة ما ابتدعه "أيزر" من مفاهيم وخطوط إجرائية، إذ ميز بينه وبين الأنواع الأخرى، فهو بالنسبة إليه «مجسد كل الاستعدادات المسبقة الضرورية بالنسبة للعمل الأدبي لكي يمارس تأثيره، وهي استعدادات مسبقة ليست مرسومة من طرف واقع خارجي وتجريبي، بل من طرف النص ذاته، وبالتالي

فالقارئ الضمني كمفهوم، له جذور متأصلة في بنية النص، إنه تركيب لا يمكن بتاتا مطابقته مع أي قارئ حقيقي»[3].

ولعل أول من حدد هوية القارئ الضمني هو "أمبرتو إيكو" في كتابه "القارئ في الحكاية"، حيث عالج النشاط التعاضدي الذي يعمل على حث المرسل إليه، أن يستخرج من النص ما لا يقوله، وإنما يفترضه ويعدنا به، يتضمنه أو يضمره، من أجل ملء الفضاءات الفارغة، وربط ما يوجد في النص بغيره مما يتناص معه، حيث يتولد هذا التناص ويذوب معه[4].

إن كل نص ينطوي على عملية مشاركة يفترض في إطارها أن الباث يستحضر المقصد عند إنتاج خطابه، فيكون هذا المقصد ضمنيا في هذا الخطاب المتلقى على أساس تشاركي، ومن جهة أخرى أكد "أيزر" أن نشاط القارئ الضمني يتلخص في كونه أفعالا إرجاعية تستجيب لمكونات النص عبر سيرورة ذهنية تنتج رد فعل ثابت ومتفق في سماته العامة.

1- الفهم ودوره في بناء المعني:

يتجه النص نحو إخبار المتلقي الذي يفهم محتوى الإخبار في ضوء إدخال معطيات جديدة تساعد عملية التأويل واتساع دائرة الفهم، باتفاق بين عوامل الإثارة الكامنة في النص ومجموع الأفعال الإرجاعية التي لا يمكن انبثاقها في ذهن القارئ إلا على أساس أنها ردود فعل إزاء ما يثيره النص من إحساس جمالي[5].

إن الحديث عن القارئ الضمني مرتبط أساسا بالفهم كمشاركة في بلورة المعنى، فمهمته هي السعي لكشف الغامض والمتستر من خلال الواضح المكشوف، الذي يتم عن طريق التفاعل والتواصل الذي يقيمه المتلقي مع النص.

إن قراءة النص القرآني من داخل إطار الإيمان توجه القارئ توجيها خاصا، إذ يخضع لهذا الإيمان خضوعا تاما، وهو يتفاعل مع نص تحيط به هالة من القدسية والرهبة، تجعل الاقتراب منه محاطا بالمحاذير، «والمؤمن الذي يملأ قلبه

هذا الإيمان من قبل أن يقرب النص هو في أعماقه مقتنع بأن اللّه قد وضع الحقيقة في هذا النص ليتعرف عليها العباد»[6]، فالقارئ يبحث عن المعنى والدلالة والحقيقة، وعن نفسه أيضا.

يفترض "الزركشي" ضمنا أن قارئ النص القرآني لا يواجه صعابا أو مشاكل في القراءة، وأن النص في متناول فهمه، وهو لا يستخدم كلمة "الفهم"، وإنما كلمة "التدبر"، «أصل الوقوف على القرآن التدبر والتفكر، واعلم أنه لا يحصل للناظر فهم معاني الوحي حقيقة، ولا يظهر له أسرار العلم من غيب المعرفة وفي قلبه بدعة أو إصرار على ذنب، أو في قلبه كبر أو هوى، أو حب الدنيا، أو يكون غير متحقق الإيمان، أو ضعيف التحقق، أو معتمدا على قول مفسد ليس عنده إلا علم الظاهر، أو يكون راجعا إلى معقوله، وهذه كلها حجب وموانع، وبعضها آكد من بعض، إذا كان العبد مصغيا إلى كلام ربه، ملقى السمع وهو شهيد القلب لمعاني صفات مخاطبه، ناظرا إلى قدرته، تاركا للمعهود من علمه ومعقوله، متبرئا من حوله وقوته، معظما للمتكلم، مفتقرا إلى التفهم، بحال مستقيم، وقلب سليم، وقوة علم، وتمكن سمع لفهم الخطاب...»[7]، ففهم النص وتدبره يعني أن الدلالة تنبع من المتكلم ومن القارئ ومن النص.

إن قارئ النص القرآني يمتلك أدوات القراءة ويتفاعل معها من منطلق معرفته بأن هذا النص جاءه من مرسل هو اللّه، مع مراعاة أسباب نزوله، مما يسمح بفهمه دون أن تقف أمامه عوائق معينة، ولكنه يحتاج دائما إلى من يرشده، ولا يمكن الوصول إلى فهم صحيح لآيات القرآن، إلا إذا فهمنا مقصد الباث (الله)، فتصبح الآيات قابلة للفهم، فإذا كانت الآيات المحكمات التي تحدث عنها القرآن الكريم قد بثها اللّه ليفهمها كل القراء لوضوح معناها، فإن المتشابهات تفرض قارئا بدرجة عالية من الكفاءة والعلم، ومن ثم يصبح النص القرآني فضاء قابلا للتأويل

يقوم به أولوا الألباب والذين يتفكرون ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾(8).

فالمقصود الأكبر من القرآن هو فهمه ومعرفة مراد الله تعالى من آياته، فإذا كان العمل هو لب التعامل مع القرآن، فإن الفهم هو مفتاح هذا العمل، وهذا يعني في كل الأحوال أن بعض آيات القرآن الكريم ليست موجهة إلى قراء عاديين، وإنما وجهت لأولي الألباب، كمتلق مقصود، يتصوره القرآن الكريم قادرا على فك رموزه.

2- القارئ المشارك في إنتاج المعنى:

إن ما توصلت إليه نظرية التلقي والتأويلية من استراتجيات مهمة كفيل باستجلاء مكتومات النص القرآني، خصوصا إذا نظرنا إليه بوصفه معطى جمالي لا ينضب، فبقدر ما نتعمق في العمل بقدر ما تتعدد زوايا الرؤية فيه، فيكون النص بمثابة نسيج من الفضاءات البيضاء والفجوات التي يجب ملؤها من قبل المتلقي، وملء الفراغ يعني مشاركة القارئ في بناء المعنى الذي يحدده السياق، خاصة إذا علمنا أن الباث يرغب في حمل المتلقي على فهم رسالته، وفي الوقت نفسه لجعله ينفعل لأثره ويستسلم له، ولا يتم ذلك إلا وفق شروط ينبغي توفرها في القارئ النموذجي لأدبية الخطاب القرآني، وبدونها لا يتحقق هذا السعي، لأن النص القرآني يتطلب تنوعا معرفيا للقراءة الواعية.

إن القرآن الكريم حافل بهذه الفجوات التي تترك مجالا للقارئ لكي يتخيل الجزء المسقط من الحادثة، ولعل الجانب القصصي أكثر التصاقا بهذه الظاهرة التي تقتضي بنيتها إضمار بعض الأحداث المتروكة عن حكمة، ليتدبرها القارئ، إذ يبدأ التفاعل مع النص كلما سد القارئ تلك الثغرات.

فقصة "مريم" مليئة بهذه الفجوات، باعتبارها قد تضمنت أمورا خارقة للنظام البشري المألوف، إذ تصور القصة مريم العذراء البتول في خلوتها، وبينها وبين أهلها حجاب، وفي خلوتها تلك يفاجئها وجود رجل معها، ذلك أن القصة أخبرت

المتلقي بالحدث، فأثارت لديه رد الفعل الذي يعمل على انبثاق معطيات جديدة تسعفه في الوصول إلى تصور حالة الفزع التي انتابت تلك العابدة المتبتلة، والمفاجأة المذهلة من وجود رجل معها في خلوتها، وهذا ما يسعف القارئ في عملية التأويل ومضاعفة الفهم في نظر "أيزر"[9].

ثم تلتفت مريم إلى هذا الرجل تستنجد بتقواها وتذكره بالله، لعله يتركها وينصرف دون أن يمسها بسوء. لقد جاء ليهبها غلاما، ومن ثم ينكسر حاجز الحياء فتواجهه، فيبين لها مهمته، ويشرح هذا الأمر الرباني الذي كلف به، ودورها في حمل هذا النبي الذي سيكون رحمة للناس وآية.

ثم تأتي فجوة في هذا السياق يملأها خيال القارئ، وذلك بتصور مشاعرها المتداخلة والفزع الذي يهدأ، وتحل محله الطمأنينة والخوف من نتائج هذا القدر ومن مواجهة أهلها بغلام تحمله من غير زواج.

وتستمر تلك الفجوة حين يفاجئها المخاض، فتواجه الفزع من جديد، وحيدة بغير تجربة، يلجئها الألم إلى جذع النخلة، لا تدري ماذا تصنع، ويستولي عليها الخوف من المواجهة والفضيحة المتوقعة، فتتمنى لو ماتت قبل هذا وكانت نسيا منسيا،﴿ فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسْيًا مَنْسِيًّا﴾[10]. فيناديها ابنها بصيغة الطلب بأن لا تخاف ولا تحزن، ﴿ فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلاَّ تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا، وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا﴾[11]، فتأنس بهذا المتكلم، ويزول جزعها ووحشتها، وتمر فجوة أخرى تأتي بعدها مفاجأة المواجهة، ولكنها مطمئنة إلى رحمة الله وآياته، فلم تعد تخاف، ﴿ فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا، يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا، فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا﴾[12].

لقد اتجهت القصة نحو إخبار المتلقي الذي سوف يكلف نفسه عناء فهم المحتوى، مما يساعد على اتفاق عوامل الإثارة الكامنة في النص، ومجموع الأفعال التي لا يمكن أن تنبثق في ذهن القارئ إلا على أساس أنها ردود فعل إزاء ما يثيره النص من إحساس جمالي[13]، وهكذا ينتهي المشهد بالمفاجأة الأخيرة في الموقف، الطفل الوليد يتكلم،﴿ قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آَتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾[14].

فهذه الطريقة في العرض تجمع بين الحوار والسرد، وترسم اللقطات البارزة، وتترك الفجوات للخيال، فتعطي للقصة حيوية واضحة، وتجعل أثرها في النفوس لا يزول، فيحاول القرآن الكريم بواسطتها أن يسمو بالقارئ بجعله قارئا مرتجلا لا يكتفي بالجاهز، بل يبحث عن التأويل والاستكشاف بغية الوصول إلى أعماق النص واستشراف آفاق جديدة مدسوسة في ثناياه، فهذه الفراغات في نصوص القرآن الكريم تميل إلى جعله نصا ذا طابع مفتوح، ورغم أنها تعد "بنية نسقية متعددة الاحتمالات"[15]، إلا أن قراءة النص القرآني تجعلنا نملأها تلقائيا دون عناء، فتكون واضحة، يسوقنا إليها السياق القرآني، لنتخيلها كما يفترض أن تكون في الواقع.

3- القارئ الكاشف لأسرار النص:

لئن ارتبط الفهم بعملية بناء المعنى عن طريق تقنية ملء الفراغ الذي يرشدنا إليه السياق النصي، فإن الخطاب القرآني قد أتاح الفرصة لمتلقيه أن يتوغل في أعماق نصوصه باحثا في أسراره، ليكشف عنها من خلال فطنته وذكائه في إطار تفاعلي يقوم فيه بنشاط تعويضي، ويكشف عن الغامض ويحدد العام والمطلق، مثل تلك الاستفهامات التي تحدث مجالا واسعا لاشتغال الفراغات والإجابة عما أطلقه القرآن دون تحديد، إذ يلجأ القراء إلى عملية كشف أسرار النص بواسطة الإجابة عن تلك الاستفهامات «ذلك أن الاستفهام في أصل وضعه يتطلب جوابا يحتاج إلى تفكير يقع به هذا الجواب في وضعه»[16].

ولعل الاستفهام غير الحقيقي أكثر ارتباطا بالقارئ الضمني من الحقيقي، وهو استفهام يخرج عن حقيقته إلى معان أخرى تفهم من السياق[17]، وقد كثر في الأسلوب القرآني، لارتباطه بتنوع مقاصد القرآن وأغراضه فقوله تعالى:﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ﴾[18]، هو سؤال للتعجب من الحادثة والتنبيه إلى دلالته العظيمة، فجاءت الحادثة على شكل سؤال معروف عند هؤلاء المخاطبين وتذكيرا لهم بأمر يعرفونه، والغاية منه عودة المخاطب إلى صوابه إن كان منكرا، وأن يحاسب نفسه ليشعر بضلاله وباطله، فجاءت هذه الاستفهامات على شكل تعجب وإنكار، قصد جعل المتلقي يعمل فكره للإجابة عنها بتدبر، والاعتراف بما أنزل إليه، وهذا النوع يساهم في تفاعل المتلقي مع النص القرآني، حيث ترد الحادثة على شكل استفهام إنكاري مرسلها يدرك مسبقا أن متلقيها سيصل بالفطرة إلى الإجابة عنها وفقا لما أراده، ومن هنا تحدث عملية التواصل والتفاعل الإيجابي.

كما أن الكنز المذكور في قصة "موسى مع العبد الصالح" خفي أمره عن موسى كمتلق حقيقي وعنا كقراء مجردين في كل مكان وزمان، مما يجعل للقارئ الضمني منفذا إليه، لمحاولة التعرف على نوع هذا الكنز، ولكنه لن يتلقى أبدا الإجابة الصحيحة، رغم محاولات المفسرين التي اعتمدت في أغلبها على الإسرائيليات التي ينبغي طرحها جانبا، لعدم الثقة فيها وتحريفها من قبل المضللين، فإذا كان العبد الصالح قد ختم برامجه السردية بالتأويل الذي أصدره في الأخير، ليغير الأفق الذي ظل يسيطر على موسى طيلة مرافقته له ﴿ وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا﴾[19]، إلا أنه خرج من أحداث القصة بطريقة غامضة ، مما يدع مجالا للقارئ مرة أخرى للتساؤل عن هذا الرجل من يكون.

إن القارئ الضمني موجود عبر كامل الصفحات، حيث يبدأ التواصل مع النص عندما يقتحم البنية النصية مستخدما رصيده المعرفي وملكاته الخاصة، وكل الظروف والملابسات المحيطة بالنص، سواء كانت متضمنة داخله، أو مستقاة من الخارج. ونصوص القرآن الكريم نصوص متميزة، بنيت وفق استراتيجية خاصة قائمة على الثغرات التي ظهرت بوضوح كنسيج من المسكوت عنه (Non dit)، «الذي يعني عدم الظهور على السطح على مستوى العبارة، ولكن هذا المسكوت عنه هو الذي يجب تحقيقه على مستوى تحقق المضمون بالضبط»[20]، فهذه الفراغات الواضحة في النص القرآني متروكة للقارئ الذي يجد نفسه مضطرا إلى ملئها اعتمادا على السياق الذي يربط الآية السابقة باللاحقة، ومن ثم يحدث التواصل والتفاعل الوجودي بين الذات القارئة والبنية النصية ، لتوليد المعنى المسكوت عنه، وذلك عن طريق الجهد الذي يبذله المتلقي بواسطة النقطة التواصلية التي تجمع بين ما هو قائم في هذا النص، وبين معارفه المتعلقة به، ومن هنا يصبح التواصل في النص القرآني فعلا منتجا للدلالة وليس مستهلكا لها حسب مفهوم "أيزر".

وقد حدث التواصل التام بين النص القرآني والمتلقي لأن السجل[21] الذي ورد فيه يقدم منظورا للتلقي يكشف عن إسهام القارئ في بناء المعنى وتحقيقه داخل النص، ومن هنا اعتبر "أيزر" أن التفاعل بين بنية النص ومتلقيه هو الهدف الأساسي في قراءة كل نص[22]، ذلك أن عملية القراءة عنده تخضع لسلسلة من الإجراءات المعقدة التي يستحضر فيها المتلقي سجل النص وخبرته في فهمه، عكس "إنغاردن" الذي يعتقد أن مساهمة المتلقي في ملء هذه المواقع وتحديدها يكون بصورة تلقائية، ولهذا تم تشبيه هذا النوع من القراء بالغواص الباحث عن الصدف في البحر، وهي الفكرة التي أشار إليها "عبد القاهر الجرجاني"، فقد تناول إسهام المتلقي ودوره الفعال في عملية البحث عن أسرار النص، منبها إلى ضرورة تسلحه

بالمعرفة والخبرة في الوقوف على معاني النص الدقيقة، لذلك شبه المتلقي بالغواص الماهر الذي يكد ويتعب باحثا عن الأصداف وشقها للوصول إلى الجواهر، فيقول: «فإنك تعلم على كل حال أن هذا الضرب من المعنى، كالجوهر في الصدف لا يبرز لك إلا أن تشقه عنه، وكالعزيز المحتجب لا يريك وجهه حتى تستأذن عليه، ثم ما كل فكر يهتدي إلى الكشف عما اشتمل عليه، ولا كل خاطر يؤذن له في الوصول إليه، فما كل أحد يفلح في شق الصدفة، ويكون في ذلك من أهل المعرفة، كما ليس كل من دنا من أبواب الملوك فتحت له»[23].

ومن هنا نفهم أن مهمة المتلقي هي البحث والتنقيب وإعمال الفكر، وليس كل متلق يهتدي إلى الكشف عن إدراك العلاقات الموجودة بين أجزاء النص، إذ عليه أن يضاعف اندماجه بالنص لكي يملأ تلك الفراغات التي توضح البنية الدلالية للنص.

إن ملء الفراغ النصي يعتمد أساسا على وجود سياق تنظيمي بين النص والقارئ لإنشاء وإقامة المضمون المبتور، وهذا السياق ينبغي أن يبنى من قبل المتلقي من خلال الإشارات والمفاتيح النصية التي يستقيها من داخل النص نفسه، باكتشاف الشفرة التي تحد النص، لاستخراج المعنى الخفي، كما أن الفراغات المتعددة في النص القرآني يتم ملؤها في غالب الأحيان بما يتوفر عليه المتلقي من ذخيرة محملة بالخطاطات الفكرية والتصورات القائمة في ذهنه، والتي تسمح له بالقيام بعملية التأويل، غير أن "إنغاردن" يرى أنه ليس من الضروري أن تملأ جميع مواقع اللا تحديد، فهناك حالات لا ينبغي ملؤها، فالإتمام المهذار لذلك الشيء الذي ليس في حاجة إلى إتمام يحول النص الجيد إلى ثرثرة رخيصة ومستفزة جماليا، ويخلخل انسجام البنية المتراكبة، وبالتالي تغيير القيمة الجمالية.

وقد نبه القرآن الكريم إلى ضرورة ترك بعض الأمور التي سكت عن ذكرها رحمة بالناس، إلا بما يمدنا إياه السياق النصي، وذلك في قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِنْ تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبْدَ لَكُمْ

عَفَا اللَّهُ عَنْهَا وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴾[24]، إذ ينبغي لمواقع اللا تحديد أن تبقى مفتوحة أحيانا، وقد أشار "إنغاردن" في نظريته ضمنيا إلى بعض المعايير التي تسمح للمتلقي بملء هذه المواقع، إذ «يجب على الإيقاع المتعدد الأصوات للبنية المتراكبة للعمل أن يبقى سليما إذا كان عليه أن يحدث تجربة جمالية، وهذا يعني أن اللا تحديدات يجب أن تزال، أي أن تملأ، أو تفسر أيضا، حتى يمكن لمستويات العمل المختلفة أن تترابط فيما بينها بطريقة ملائمة، وتصبح الخصائص الصحيحة جماليا في مركز الاهتمام، فالمعيار إذن هو الإيقاع»[25].

ويرى "أيزر" أنه إذا كان على مواقع اللا تحديد أن ينظر إليها كشروط للتواصل، رغم كونها خاضعة للانفعال الأصلي باعتباره دافعا حقيقيا بالنسبة للتحقق، فإن هذه الشروط لا يمكنها أن تكون مهيمنة على النزعة الوهمية في الفن، فاللا تحديدات هي التي تعين انفتاح الموضوع القصدي، وبالتالي يجب عليها أن تختفي في فعل التحقق إذا ما كان ينبغي أن يتم إنتاج الموضوع الجمالي المحدد[26].

وفي بعض الأحيان، ينبغي ترك البحث في ملء الفراغ القائم في النص القرآني، نظرا لعدم إمكانية الوصول إلى تحديده، وذلك مثل عذاب الله الذي يذكره في الغالب دون تحديد، إذ إن عذاب الأقوام وإهلاكهم يختلف من قوم إلى آخر، وكذلك بالنسبة للنعيم الذي أشار إليه بصفة مطلقة دون تحديد، فمهما تصور المتلقي ذلك، قد لا يصل إلى ما أعده الله لعباده الصالحين في الآخرة مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.

لقد أولى القرآن الكريم عناية بالغة لمتلقي نصوصه، فظهرت ملامحه عبر كامل صفحات السور بطرق عديدة ومتنوعة، واستطاع أن يعبر عن آراء أصحاب نظرية التلقي ومسايرتها، إذ بإمكاننا أن نسبغ تلك الآراء على قارئ النص القرآني سواء كان قارئا حقيقيا فعليا أو ضمنيا، أو باعتباره قارئا مجردا يحتل تواجده في كل زمان ومكان.

إن المتلقي القرآني يعد محورا رئيسيا في هذه النصوص باتخاذه كل الوسائل الإجرائية والاستراتيجيات التي عبرت عنها نظرية التلقي، وقد شكل المهمة المركزية التي تتمحور حول الأهداف العامة التي أتى بها أصحاب هذه النظرية، عن طريق الأثر الذي يحدثه كل نوع من هؤلاء القراء، ومساهمته الفعالة في كشف غوامض النص، وملء الفضاءات الدلالية الفارغة المتروكة عن حكمة وتدبر، فلم يعد دور المتلقي القرآني سلبيا استهلاكيا، ولم تعد استجابته عفوية، تسعى فقط إلى إشباع رغبة التلقي، بل أصبح قارئا مشاركا في صنع المعنى، عن طريق استجابته وتفاعله، وعلى هذا الأساس امتاز القارئ الضمني في النص القرآني بجملة من الاستراتيجيات الهامة التي عبر عنها "أيزر" كما يلي:

أ- أن القارئ يقوم بتجسيد النص وملء فجواته.

ب- بروز أهمية الصور العقلية التي تتشكل أثناء بناء الموضوع.

ج- فحص الشروط التي تسمح بالتفاعل بين النص والقارئ.

لقد فسح المجال في النص القرآني للقارئ أن يتحرك عبر نصوصه المختلفة التي يترابط بعضها مع البعض، للانتقال من منظور إلى آخر، ويكون ذلك من خلال العالم الذي توحي به آيات القرآن الكريم، فالقارئ والنص يلتقيان عند مواضع مشتركة تعرف عند "أيزر" برصيد النص، ومن هنا تبدأ عملية التواصل، حيث يتجول القارئ عبر النص، فيكشف عن المنظورات التي يترابط بعضها مع البعض.

الهوامش:

1- فولفغانغ أيزر، «فعل القراءة، نظرية الوقع الجمالي»، ترجمة: أحمد المديني، مجلة آفاق، اتحاد كتاب المغرب، الرباط، ع6، 1986، ص، 30.

2- ينظر: ناظم عودة خضر، الأصول المعرفية لنظرية التلقي، دار الشروق للنشر والتوزيع، رام الله، عمان، الأردن، ط1، 1997، ص 148.

3- فولفغانغ أيزر، فعل القراءة، نظرية جمالية التجاوب، (في الأدب)، ترجمة وتقديم: حميد لحمداني، الجيلالي الكدية، منشورات مكتبة المناهل، فاس، 1987، ص.3

4- ينظر: أمبرتو إيكو، القارئ في الحكاية، التعاضد التأويلي في النصوص الحكائية، ترجمة: أنطوان أبو زيد، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، بيروت، ط1، 1996، ص .07

5- ينظر: إدريس بلمليح، المختارات الشعرية وأجهزة تلقيها عند العرب، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، المغرب، 1995، ص 279 وما بعدها.

6- سيزا قاسم، القارئ والنص، العلامة والدلالة، الشركة الدولية للطباعة، مدينة أكتوبر، 2002، ص .108

7- بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي، البرهان في علوم القرآن، تحقيق: أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، ج2، ط2، 1391 هـ/ 1972م، ص ص: 180- .181

8- سورة ص، الآية .29

9- Voir: Wolfgang Iser, L'acte de lecture, théorie de l'effet etshétique, Margada éditeur, Bruxelles, 1985, P 49.

10- سورة مريم، الآية: .23

11- سورة مريم، الآيات: 24- .25

12- سورة مريم، الآيات: 27- .29

13- ينظر: إدريس بلمليح، المختارات الشعرية وأجهزة تلقيها عند العرب، ص 279 وما بعدها.

14- سورة مريم، الآية: .30

15- حميد لحمداني، القراءة وتوليد الدلالة، تغيير عاداتنا في قراءة النص الأدبي، المركز الثقافي العربي، بيروت، لبنان، ط1، 2003، ص .238

16- أحمد بدوي، من بلاغة القرآن، مكتبة نهضة مصر، القاهرة ، ط3، د، ت، ص .163

17- ينظر: بن عيسى طاهر، أساليب الإقناع، في القرآن الكريم، دار الضياء للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، 2000، ص .117

18- سورة الفيل، الآية: .1

19- سورة الكهف، الآية: .82

20- أحمد بوحسن، نظرية الأدب – الفهم- التأويل، نصوص مترجمة، دار الآمان للنشر والتوزيع، الرباط، ط1، 1425 هـ / 2004م ، ص .30

21- ينظر: ناظم عودة خضر، الأصول المعرفية لنظرية التلقي، ص .155

22- ينظر: فولفغانغ أيزر، « في نظرية التلقي، التفاعل بين النص والقارئ»، مجلة دراسات سيميائية أدبية لسانية، 1992، ع7، ص.2

23- عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة في علم البيان، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ط1، 1423هـ / 2002م، ص .123

24- سورة المائدة، الآية: .101

25- ينظر: فولفغانغ أيزر، فعل القراءة ، ص 108.

26- ينظر: م ن، ص ص: 108- 109.